فلسطين :

ثلاثة رجـــال

للأستاذ محمود محمد شاكر

أحب أن أقدم بين يدى كلامى هذا كلمة أو كلمتين لابد منهما : الأولى ، أن أبتهل إلى الله أن يبرىء قلوبنا من الجبن والخور والبخل ، وأن يؤيدنا بالصبر والقوة ، وأن يرفع عنا غضبه ومقته ، فقد كتب علينا الجهاد فى سبيله بما استطعنا . وأحب لكل كاتب وقارىء أن يتوب إلى الله مما اكتسب من إثم يده أو قلبه أو لسانه ، ليتجرد إلى الجهاد وهو طاهر مصمم لا تلفته الدنيا عن الدفاع عن الحق

والثانية : أنى كنت كتبت عن قضايا العرب وعن فلسطين ، فكنت لا أزال أذكر الإسلام وأشفعه بذكر نصارى الشرق ، لأنى أعدهم منا ومن أنفسنا ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا . وكنت أرى أن نصارى الشام والعراق قد بذلوا من الجهود فى قضايا العرب ما صرح عن مكنون أنفسهم وعن إخلاصهم الذى لا يدفع ، وأنهم جزء لا يتجزأ من العالم العربى ومن العالم الإسلامى ، وكنت أتخوف أن يقف قبط مصر مترددين عن المشاركة الصريحة فى جهاد العرب والمسلمين فى مسألة فلسطين ، ولكنى أشهد الله اليوم أن قبط مصر قد ملأوا قلوب العرب والمسلمين غبطة بهم وإكباراً لهم ، وحرصاً على مودتهم حرصاً لن يعمل فيه بعد اليوم دس ولا كيد ولا وقيعة . إنه لا يحل لامرىء مسلم أو عربى بعد اليوم أن يرتاب أو يتشكك فى نبل هؤلاء الأخوان الذين نصرونا فى ساعة العسرة لا تدفعهم إلى هذه النصرة رغبة ولا رهبة .

وسأسجل فى هذه الكلمة مآثر لرجلين من أجل النصارى شأناً ، لأنهما وقفا فى الجهاد موقفاً يوجب علينا أن نخلد ذكرهما فى تاريخ العرب وتاريخ المسلمين ، ولا سبيل إلى جزاء هذين الرجلين إلا بأن نرفع ذكرهما فى هذه الساعة وإلى أبد الدهر ، لأنهما قطعا السبيل على كل خبيث من شياطين السياسة القذرة التى انبعثت فى أوربة وأمريكا ، وعلى شياطين اللؤم الصهيونى الدنئ .

أما الأول فهو الشيخ الجليل الصادق غبطة بطريرك الأقباط الأرثوذكس الأنبا يوساب ، فقد اجتمع المسلمون والعرب فى المسجد الجامع الأزهر فى يوم الجمعة ٢٢ المحرم سنة ١٣٦٧ ، فإذا الناس يفاجأون بتقدم القمص متياس الأنطونى سكرتير غبطته مندوباً من قبله ، ومعه إخوانه من رؤساء الأقباط فى مصر ، القمص جرجس إبراهيم رئيس الكنيسة القبطية الكبرى ، والقمص عبد المسيح سمعد ، والقمص مرقص غالى . ودخول هؤلاء الأربعة الكرام إلى المسجد الجامع فى ساعة الجمعة ، ونيابتهم عن غبطة البطريق الأعظم فى شهود هذا اليوم المشهود ، وخطبتهم الناس فى هذا المسجد ، ومشاركتهم فى أكبر مؤتمر إسلامى فى مصر ، قد دل دلالة صريحة على أن الأنبا يوساب البطريق الأعظم ، هو رجل قد نور الله قلبه بالحق ، وآتاه من الفطانة والصدق والأمانة فى دينه وخلقه ما يجعل عمله هذا أمانة فى عنق كل مسلم وعربى ، يحميها ويدفع عنها ويعتز بها ويكرم أصحابها فى عامة أمورنا وخاصتها . وقد فعل ذلك من تلقاء نفسه غير متردد ، فدل ذلك على أنه رجل سياسى مخلص ، وعلى أنه يدرك تمام الإدراك كل ما يحيط بهذا الفجور الصهيونى من الخبائث ، وعلى أنه يأبى أن يدخل بين أقباط مصر ومسلميها مفسد يبغى الوقيعة .

ومن قبل ما وقف هذا البطريق الأعظم موقفاً رد كيد البريطانيين فى نحورهم ، وذلك فى حادثة الزقازيق التى دبرتها بريطانيا لإفساد ما بين المسلمين والأقباط ، فلولا حكمة هذا الرجل النبيل ، لكان هذا الحادث البغيض سبباً فى اشتعال نار الفتنة التى أشعلت بريطانيا مثلها من قبل لتفرق كلمة الأمة تفريقاً يجعل بعضنا لبعض عدواً . ونحن نحمد الله إذ جعل فى إخواننا القبط رجلا كهذا الرجل الجليل ، يقف حارساً يقظاً على أمته وأمتنا ، يرد عنها كل مكيدة . وما دام فى الأقباط هذا الرجل وأمثاله ، فالمسلمون والعرب جميعاً لا يبالون بعد اليوم أن يبذلوا مهجهم فى الذود عن إخوانهم ، وفى حمايتهم ، وفى الدفع عن كل شىء يسوءهم ، ما بقى على ظهر هذه الأرض مسلم يؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر . إنه دين فى أعناقنا للقبط ، نسأل الله أن يهبنا القدرة على أدائه وإن أبوا هم أن يقبلوا عن هذه المأثرة جزاء .

وأما الرجل الآخر فهو كصاحبه يتلألأ قلبه بنور الإخلاص والإيمان ، تكلم فأبان عن نفس حرة أفزعت « اليهود المسئولين فى مدينة الأسكندرية » أى يهود مصر ، فأقبلت طائفة منهم تريد أن تثنى هذا الرجل الجليل عن إذاعة حديثه ، فأجابهم بأنه ما قال ما قال إلا وهو يعتقد أنه قول صريح سليم ، وليس إقحاماً للدين فى السياسة ، وأنه يقصد حماية التراث المقدس للمسيحية ،

وانه إنما يتكلم عن عقيدة وإيمان بما يقول . ذلكم هو الرجل النبيل غبطة البابا كريستوفورس الثانى بطريرك الإسكندرية وإفريقية للروم الأرثوذكس .

وقد جاء فى هذا الحديث أن غبطة البطريق الأعظم للروم قد دهش لإنشاء دولتين فى فلسطين ، ودهش أيضاً من أن تكون أمريكا والاتحاد السوفيتى هما الداعيتين إلى هذا التقسيم . ثم قال :

« وإنه لتزداد دهشتنا أن تعمد الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذه المحاولة الجريئة رغم أحداث التاريخ الدالة على فساد هذه الفكرة وخطرها . ولم العبرة فيما حاوله الإمبراطور جوليان الرومانى. ولا ندرى كيف فكرتا فى وضع الأراضى المسيحية المقدسة فى حماية أولئك الذين رغبوا دائماً ، جماعات وأفراداً ، فى أن يعيشوا حتى يروا اليوم الذى لا يسمع فيه ذكر للمسيح . وهل يستطيع إنسان أن يتصور اليهود حرساً وحماة للأمكنة المقدسة . وهم الذين سيعمدون إلى تدنيسها بمجرد السيادة فيها ؟

« ونحن نرى أيضاً أنه لا يمكن أن يسمح للفاتيكان أن تكون له السيادة فى فلسطين ، فإن الحروب الصليبية قد برهنت على فساد هذه الفكرة . ولهذا فإننا نحن الروم الأرثوذكس نرى أنه فى حالة إلغاء الانتداب الدولى على الأراضى المقدسة ، أو عدم وجود دولة عربية مكان هذا الانتداب ، أن تعطى للمسلمين حماية هذه الأراضى ، لأنهم منذ مارسوا حكمها فى هذه القرون الطويلة ، قد برهنوا على أنهم جديرون بثقتنا » .

وهذا كلام أقل ما يقال عنه إنه كلام رجل مؤرخ عالم بصير لا يدفعه إلى ما يقول هوًى لشىء ولا رهبة لمكروه . فإن غبطة البابا كريستوفورس قد قضى طفولته وشبابه فى فلسطين ، وقد عرف بنفسه شعور اليهود ضد العرب وضد الأرض المقدسة ، كما قال متكلم بلسان البطريركية الرومية .

وقد أثبت حديث البطريق الأعظم بتمامه لأنه سوف يصبح هو وقائله جزءا لا يتجزأ من تاريخ الإسلام ، ولأننا نحن المسلمين نحب أن نحمل المنن فى أعناقنا فنحافظ عليها ونرعاها وندافع عنها ونجزيها أحسن الجزاء . إن حديث هذا الشيخ الأجل سوف يصير قطعة من تاريخنا يرويه أربعمئة مليون عربى ومسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهو حديث يفسر كل ما كنا نقول به من أن مشايعة الدول الأوربية والأمريكية للصهيونية الفاجرة ، قائمة على الصليبية الحمقاء . فهم يحاربوننا حرباً صليبية لا يستثنون فيها مسلماً ولا نصرانياً فى الأرض الإسلامية والعربية وقد كان بعض الناس يعيب علينا هذا الرأى ، ولكن حديث البطريق الأعظم قد كشف الغطاء عن كل ذلك ، ومهد للتاريخ أرضاً جديدة يدرس فيها هذا الصراع بين أهل الشرق العربى الإسلامى من مسلمين ونصارى ، وبين الغرب الصليبى من نصارى ويهود . ولكن نصارى الشرق غير نصارى الغرب ، فهؤلاء قوم ملئت قلوبهم أحقاداً صليبية مظلمة لا عقل فيها ولا ضمير لها ، أما نصارى الشرق فهم يعرفون تمام المعرفة أن نصارى الغرب قوم مفترون جاهلون متعصبون يريدون أن يدنسوا هذه الأرض المقدسة باليهود عدواة للمسلمين ، غير ناظرين إلا بالعين الصليبية البغيضة ، لا بعين الإنصاف والحق كما ينظر نصارى الشرق . وحسبنا هذا البيان من البطريق الأعظم ، فإنه حسنة لن ينساها له مسلم إلى أن تقوم الساعة

وقبل أن أنتهى إلى ذكر الرجل الثالث أحب أن أنبه القارئ ، وأنبه قوى العرب فى كل مكان ، وفى مصر خاصة ، إلى أنه ما كاد « يهود مصر » يعلمون نبأ إذاعة هذا الحديث فى الصحف حتى تبادروا إلى غبطته يريدون أن يثنوه عن نشره وإذاعته . فما معنى هذا الذى يفعله اليهود الذين خلعنا نحن عليهم الجنسية المصرية ؟ وماذا تقول حكومتنا فى هؤلاء القوم الذين يريدون أن يكونوا أعواناً للصهيونية فى قلب بلادنا فى هذه الساعة ؟ أو يحدث هذا فى مصر فى الأسبوع الماضى ، وإذا بنا يقرأ اليوم (٨ ديسمبر سنة ١٩٤٧) أن الشرطة العراقية ألقت القبض عند الحدود العراقية السورية على ثلاثة يهود عراقيين من موظفى شركة الزيت العراقية ومعهم جهاز إرسال لاسلكى . فما معنى هذا ؟ ليعلم اليهود أن العرب لن يقبلوا أن يكون للطابور الخامس عمل فى بلادهم

وننتهى من هذا التعليق لننضم إليه خبر الرجل الثالث الذى ينبغى أن يعرفه العرب والمسلمون ، فقد أفضى سيادة حاييم ناحوم افندى الحاخام الأكبر للطائفة الاسرائيلية فى مصر بالتصريح الآتى :

« إنى أرى أن مركزى يوصف كونى رئيساً دينياً وروحياً لأبناء الطائفة الاسرائيلية ، يحول بينى وبين الخوض على صفحات الصحف فى أى مناقشات مهما كان نوعها أو الغرض منها . ولكن إزاء كثرة ما وجه إلينا من أسئلة واستفهامات أرى أن واجبى يحتم على أن أتوجه إلى السائلين وإلى جموع الأمة المصرية الكريمة بكلمة أرجو أن تكون حداً فاصلا لهذا الموضوع : فأبناء الطائفة الاسرائيلية التى أتشرف برياستهم الدينية هم جزء لا يتجزأ

من الأمة المصرية ، يشعرون بشعورها ويتألمون لألمها . فكيف إذن يحاول البعض التشكيك فى عواطفهم نحو أبناء بلدتهم المصريين . إن دستور البلاد يكفل لنا جميع الحقوق الممنوحة لأبناء مصر الكريمة سواء بسواء ، ولذلك فإن واجبنا نحو بلادنا يجعلنا نعمل بشعورنا كمصريين . وقد أصدرت أمرى إلى رجال الكنائس الاسرائيلية باقامة الطقوس الدينية ليعظوا فيها أبناء الطائفة على أن يتضافروا مع إخوانهم المصريين فى هذا الظرف العصيب »

ونحن نشكر الحاخام الأكبر ، ولكن ليعلم سيادته أنه قبل أن يتوجه إلينا بكلام يكون « حداً فاصلا ينبغى أن يعمل هو وأبناء طائفته عملا يكون « رداً فاصلا » ، وهذا مع الأسف لم يحدث قط ، وأخشى أن أقول إنه لن يحدث قط . ثم ليأذن لنا سيادته أن نوجه نظره الكريم إلى الذى ذكرناه وذكرته الصحف ولم يستنكره أحد من يهود مصر ، وهو ذهاب بعض المسئولين من اليهود فى ثغر الاسكندرية « كى يثنوا البطريق الأعظم للروم الأرثوذكس عن إذاعة حديثه . أهذا أيضاً إقحام للدين فى السياسة

وليأذن لنا سيادته أن نقول له إننا نعيش فى أرض مصر ، واليهود يعيشون معنا فيها لا فى المريخ ، وأننا نعلم علماً يقيناً أن جمهوراً كبيراً من شباب اليهود فى مصر ، يجرى بينهم الحديث وبين المصريين ، فلا نجد أحداً منهم يكتم مشايعته لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، بل يفرح بها ويصر على التصريح بأنها خير لبلادنا ، وأنه ينبغى علينا نحن العرب أن نعاون على إنشاء هذه الدولة ، وأن نعيش معاً فى سعادة وأمن ورخاء !!!

وليأذن لنا سيادته أيضاً أن ننبهه إلى أن هذه الساعة التى جاش فيها العالم الإسلامى والعربى ، ليدفع عن فلسطين الجور الذى أرادت هيئة « الأمم المتحدة » التى تصرفها روسيا وأمريكا وبريطانيا ، هى ساعة فاصلة فى تاريخ العرب والمسلمين ونصارى الشرق جميعاً ، وليأذن لنا أن ننبهه أيضاً أن النار المشتعلة الآن تفصح كل الإفصاح عن المعنى الذى ينطوى عليه تقسيم فلسطين ، فكيف ذهب عن فطنة سيادته أن يذكر كلمة واحدة صريحة تفصح أيضاً كل الإفصاح عن استنكاره واستنكار طائفته لهذا التقسيم الجائر الذى أرادت أن تفرضه على العرب هيئة الأمم المتحدة ؟

وليأذن لنا سيادته أيضاً أن ننبهه إلى أن الصهيونية تدعى أنها تتكلم باسم يهود العالم جميعاً ، وأن جميع الدلائل إلى اليوم تدل على أن كثرة يهود العالم منضمة إليهم ، فما هو الضمان الذى يقدمه لنا سيادته حتى تطمئن قلوبنا إلى أن يهود مصر ليسوا كيهود سائر العالم ؟

وليأذن لنا سيادته أيضاً أن ننبهه إلى أن الصهيونية قد أذاعت منذ القديم أنها تريد أن تستولى على أرض إسرائيل كلها من الفرات إلى النيل ، وأن هذا مطبوع منشور فى كتبهم ، وأنه حين ذاع نبأ التقسيم وقف مفاوك صهيونى يستنكر التقسيم ثم رضى به على مضض ، لأنه الخطوة الأولى التى تفضى إلى استيلائهم على أرض بنى إسرائيل كلها من الفرات إلى النيل . وأنا لا أظن أن مثل هذا مما يغيب عن الرجل الفاضل العالم أحد أعضاء المجمع اللغوى العربى .

وليأذن لنا سيادته أن نذكره بوصية الله لنا فى محكم تنزيله إذ يقول : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، فالمسلمون والعرب جميعاً سوف يقاتلون من يقاتلهم من الصهيونيين ، أما سائر اليهود فلن يعتدى عليهم مسلم ولا عربى ما داموا فى ذمتنا ولا يؤلبون علينا . فهل يأذن سيادته بأن يعلم أن المسألة ليست مسألة سياسية نريد أن نقحم الدين فيها ، بل هى مصير العرب والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؟ وهل يأذن لنا أن نسأله أن يدفع عن يهود مصر كل شك وريبة بأن يصدر بياناً صريحاً عن موقف يهود مصر فى مسألة التقسيم ؟ وهل يأذن لنا سيادته أن نطالبه ونطالب أبناء ملته من يهود مصر بأن يفعلوا فعلا صريحاً واضحاً يدل على أن عواطفهم هى عواطف الأمة المصرية تشعر بشعورها وتتألم بألمها ؟ وهل يأذن لنا سيادته أن نقول له إن هذا الذى يجرى الآن ليس « ظرفاً عصيباً » كما جاء فى كلامه ، بل هو أوضح من ذلك ، هو حرب بيننا وبين يهود العالم وكل من يناصرهم من الأمم ، وأنها حرب سوف تستمر إلى أن يستقر الحق فى قراره ولو طالت مئة عام ؟ أفليس من الحكمة إذن أن يتخلى الحاخام الأعظم عن العزلة التى يريدها لنفسه ، ويدخل هو وأبناء طائفته فى الجهاد الذى كتب علينا نحن العرب من مسلمين ونصارى ويهود لكى ندفع عن بيت المقدس أدناس الصهيونية ؟

هذه كلمة مجاهد عربى يتقدم بها إلى الحاخام الأعظم تعليقاً على حديثه الذى سوف يبقى مذكوراً فى تاريخ الإسلام والعرب لم أعمد فيها إلى شرح أشياء أعرفها حق المعرفة ، انتظاراً لما يكون من عمل سيادة الحاخام الأكبر ليعلم . وسيادته أن